حلم الحفاء

بقلم

نجيب يوسف بدوى

المدرس بطنطا الثانوية للبنات

هل سبق لك أن حلمت أنك تذهب إلى مقر عملك حافياً ؟ ! هذا هو الحلم الذى أقبل علىّ به زميل ذات يوم طالباً إلىّ تفسيره . وكانت هذه الرؤيا تنتابه متكررة . ففى كل مرة يحلم بأنه ذاهب إلى مدرسته ، ودخل الفصل وهو حافى القدمين ، الأمر الذى كان يسبب له كثيراً من الضيق والانزعاج .

وحلم الحفاء ذائع الانتشار . وقد يكون من بين القراء من خبره بنفسه . وقد سمعته من أكثر من مصدر . سمعته من هذا الزميل ، ومن غيره . وسمعته من سيدة (ن ف) فى نحو الثلاثين من عمرها . والحلم كما ترويه : « رأيت فيما يرى النائم أنى فى حفل حافل يضم علية القوم من الأجانب رجالا ونساء . وكلهم فى ملابس السهرة الفاخرة . والحفل فى قاعة فسيحة باهرة الضوء ، يحيط بها أعمدة من رخام . . . وجدت نفسى فى هذا الحفل أرتدى ثوباً طويلا للسهرة أبيض اللون . وكنت محط الأنظار ، وموضع حفاوة وإعجاب . وأقبل علىّ جميع من فى الحفل يرحبون بى ويحيوننى . وكنت أرد عليهم تحياتهم بلغتهم ! وكلما تقدم منى أحدهم محيياً ، أقف وأحييه أو أسلم عليه وأنا جالسة . إلا أنى فى كلتا الحالتين وطوال الحلم كنت أحرص على أن يغطى طرف الثوب قدمىّ لأنهما كانتا عاريتين وبدون حذاء ! ! وعلى الرغم من أنه لم يبد على من حولى أنهم يلحظون ذلك ، إلا أنى كنت من حفاء قدمىّ فى شدة الضيق والحيرة والخجل . وحرصت على ألا يكتشف الحاضرون ذلك ، فجمدت فى مكانى . وبينما كان المدعوون يرقصون على أنغام الفالس ، لزمت مكانى ولم أبرحه .

وأخفيت قدمىّ بين المقعد وذيل ثوبى الطويل . « واستيقظت وأنا أعجب ماذا دهانى حتى أذهب إلى هذا الحفل الرائع ، حافية القدمين ! ! » .

أقدم هذا الحلم لمن يرغب فى المساهمة فى تفسيره . والطريف فيه أنه يقبل التأويل على مذاهب شتى . وإذا اصطنعنا طريقة كل من : فرويد ، وأدلر ، ويونج ، وقمنا بتطبيقها على هذا الحلم ، جاء تفسير هذا المثال الخاص وهو حلم الحفاء ، نموذجاً موضحاً للطريقة التى يتبعها ، والتى يدعو إليها كل منهم فى تفسير الأحلام . غير أنه قد يوجه ، لأول وهلة ، لهذا المنحى من التطبيق ، أننا قد نتقيد مقدماً بأفكار موجهة ثابتة ، سبق لنا اعتناقها ، ونحاول تطبيقها على هذا الحلم . وحيث أن الحلم يعبر عن نفسه بلغة الحالم ، وحيث أن أفكار الحلم وحوادثه ، تعبر عن نفسية الحالم وظروفه ، فينبغى أن نحرص على ألا نتحيز لفكرة سابقة ولمبدأ معين نحاول أن نثبته . مثل هذا الاعتراض يكون فى موضعه لو أننا نتناول حلما فردياً . وحيث أن حلم الحفاء الذى نحن بصدد تفسيره ذائع الانتشار ، فيمكن اعتباره حلما نموذجياً . وفى الأحلام النموذجية يمكن الاستغناء عن التداعى الحر الذى يمدنا به الحالم . بل إن الحفاء فى الحلم النموذجى يبدو كرمز . فلنا أن نصطنع ما شئنا من الطرائق لتفسيره : سواء باستخدام التداعى الحر ، أو بتأويل مدلول الرمز ، أو بهما معاً .

وحلم الحفاء وإن كان ذائع الانتشار ، إلاأنه يلوح أن هنالك طبقة معينة لن يكون هذا الحلم ملحوظاً بينها ، وهى طبقة الحفاة فى حياتهم الواقعية ! . فالفلاح مثلا الذى اعتاد السير حافياً لن يلحظ مثل هذا الحلم . ومثل ذلك يقال عن الزنوج ، العراة تقريباً ، من غير الممكن أن ينتاب أحداً منهم مثل هذا الحلم . ومعنى ذلك أنه ، حتى فى الأحلام ، ينبغى أن ننظر إلى الشخصية فى علاقتها بالبيئة الاجتماعية .

قد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن حلم الحفاء نتيجة لتنبيه خارجى ، أو نتيجة لمؤثر حسى : كأن ينكشف الغطاء عن القدمين أثناء النوم . غير أن مثل هذا المؤثر الحسى الخارجى لا يكفى وحده لأن يكون سبباً فى إثارة الحلم . إذ ينطوى الحلم على حوادث وصور وتفاصيل لا تتمشى مع طبيعة مثل هذا المؤثر الحسى . والتجارب التى أجريت على أثر المنبهات الخارجية الحسية فى إثارة الأحلام دلت على أن المنبه الواحد يثير أحلاماً مختلفة . على

أنه لا يؤدى كل مؤثر حسى بالضرورة إلى حلم . وقد يفيد الحلم من المؤثر الحسى ويستخدمه فى موضوعه ويضمنه مشموله النفسى . فالحلم نشاط نفسى خالص ، وينبغى تفسيره تفسيراً خاصاً به . والحلم نشاط نفسى تلقائى ينبعث من اللاشعور ولا سلطان للشعور عليه . ولذلك لا نملك توجيه دفة حوادثه وأفكاره وفق أغراضنا وهوانا . والحلم ظاهرة ترمى إلى غرض ، وله وظيفة . وليس فى هذا الحلم مصادفة . فكون الحلم اتخذ هذه الصورة الرمزية بالذات ، يقضى بوجود حتمية سيكولوجية ، وبأن الحلم تعبير عن دوافع داخلية ذات مغزى وتحتاج إلى تفسير .

* * *

يرى فرويد أن كل حلم يكشف عن تحقيق رغبة . وفى هذا الحلم يبدو تحقيق أكثر من رغبة واحدة : ففيه تحقيق للرغبة فى الاختلاف إلى الحفلات الساهرة . ومما هو جدير بالذكر أن الحالمة — كما علمنا بالتداعى الحر — لم تختلف فى حياتها الواقعية إلى مثل هذا الحفل . وصور الحفل فى الحلم مأخوذة عما شاهدته فى السينما . وفى هذا الحلم تتحقق كذلك الرغبة فى ارتداء فساتين السهرة ، وفى التخاطب بلغة أجنبية . . . غير أن هذه الرغبات تبدو كحوادث عرضية ، أو كتفاصيل ثانوية فى الحلم . فالعنصر الحرج هو الحفاء الذى يمكن اعتباره كرمز . هذا الحفاء هو ما يحتاج إلى تفسير .

أفرد فرويد فى كتابه « تفسير الأحلام » فصلا عن الأحلام النموذجية . وهى الأحلام الذائعة الانتشار والتى يحلم بها عدد كبير من الناس بطريقة واحدة متشابهة . والتى يبدو أنها تحمل دائماً نفس المعنى ، مهما تكن شخصية الحالم . وعلى الرغم من أن تفسير الأحلام يستخدم التداعى الحر ، الذى يكشف عن الأفكار اللاشعورية الكامنة خلف المحتوى الظاهر للحلم ، فإنه يمكن الاستغناء عن التداعى الحر فى تفسير الأحلام النموذجية ، ولا سيما ما يحتوى منها على رموز .

يبدأ فرويد فصله هذا عن الأحلام النموذجية بحلم العرى [1] — nakedness ولا يشترط أن يكون العرى فى الحلم كاملا . وإنما يظهر الحلم فى صور شتى : كأن تظهر الحالمة بملابسها الداخلية أو بقميص النوم . وقد يحلم ضابط الجيش بأن سترته كانت دون ياقة أو دون حزام . . . . . هذا مما يدعونا إلى اعتبار الحفاء

(١) S. Freud : "The Interpretation of Dreams"; Allen and Unwin, p.p. 236-242.

جزءاً من العرى . وبذلك يمكن تطبيق تفسير فرويد لحلم العرى على حلم الحفاء . ويشترط فرويد لكى يكون حلم العرى نموذجياً ، أن يشعر الحالم بالضيق والقلق والخجل ، ويجاهد فى الهرب أو فى الاختباء ، ولكنه يعجز عن أن يغير من أمره .

يُرجع فرويد أصول حلم العرى إلى ذكريات الطفولة الأولى (١) فالرغبة فى عرض الجسم عارياً ، كالرغبة فى العودة إلى الفردوس ، حيث لم يكن الإنسان قد عرف الخجل بعد . ويجد فرويد نظائر لهذا الحلم النموذجى كذلك فى القصص الخرافية التى تروى للأطفال . فحلم العرى — كما يراه فرويد — يكشف عن رغبة طفلية مكبوتة فى عرض الجسم عارياً ، حتى ليطلق على « أحلام العرى » اسم « أحلام العرض » (٢) .

وإذا اصطنعنا طريقة فرويد ، جاز أن يكون حلم الحفاء كحلم العرى ، كلاهما يكشف عن رغبة طفلية مكبوتة . وبذلك قد يكشف حلم الحفاء عن الرغبة فى التخفف من أعباء التقاليد ، وعن الرغبة فى التحرر من قيود المجتمع ، والعودة إلى بساطة الطفولة وسذاجتها .

غير أن مثل هذا التفسير لا يأخذ فى الاعتبار التناقض البين بين فستان السهرة وحفاء القدمين . أى أنه لا يتناول الشخصية بأكملها . كما أنه لا يتناول الشخصية فى علاقتها بالبيئة الاجتماعية . وحيث أن الملابس ظاهرة اجتماعية ، فالحفاء إشارة إلى الشىء فى غير موضعه . أو هو تعبير عن عدم الانسجام أو عن ناحية نقص . يمثل الحفاء تياراً سفلياً مضاداً يتهدد الشخصية فى تكاملها ووحدتها وائتلافها مع ظروف بيئتها . ويرى شتيكل (٣) أن الحلم يصور الصراع بين الرغبة والرقيب أو بين النزعات المكتوبة والقوى الكابتة . فإذا كان فرويد قد عنى بالرغبة الطفلية ، أى بقطب واحد من قطبى الصراع ، فإنه يتبقى القطب الآخر وهو الرقيب الذى يلوح أنه هو الذى يسبب القلق والحرج فى الحلم . وإذا طبقنا رأى شتيكل فى أن الحلم تصوير لقطبى الصراع وهما الرغبة والرقيب ، على حلم الحفاء ، كان الحفاء نتيجة للرغبة ، والكساء من فعل الرقيب . ومع ذلك نجد صعوبة فى قبول فكرة أن الحلم بالحفاء ينم عن رغبة فيه . وأن الحالمة كانت تخفى رغبة لاشعورية فى

(١) Ibid. p. 238.

(٢) "Dream of nakedness are exhibition—dreams." Ibid. p. 239.

(٣) W. Stekel : "The Meaning of The Dream Symbolism"; in An Outline of Psychoanalysis, edited by J.S. Van Teslaan, Modern Library

السير حافية ! فالحفاء غير مرغوب فيه لا فى اليقظة ولا فى الحلم . إلا إذا كان فى الأحلام مناقضة للحياة العادية . ولا تتأتى مثل هذه الرغبة ، إلا إذا سلمنا بأن الحلم يختلف اختلافاً تاماً عن تفكير الصحو ، وبأن هنالك تناقضاً بين الشعور واللاشعور ، يؤدى إلى أن تخضع الأحلام لقواعد تناقض قواعد التفكير العادى .

* * *

ينتقد أدلر[1] مثل هذه التفرقة « فالحياة الشعورية واللاشعورية وحدة متكاملة ولا تناقض هنالك بين النوم واليقظة ، أو بين أفكار الأحلام وأفكار الصحو . إن كلا منها إلا مراتب من نشاط عقلى واحد . . . ويدعو أدلر إلى ضرورة النظر إلى شخصية الفرد كلها متكاملة ، وإلى تأمل الفرد كوحدة ، وإن اختلفت أشكال النشاط التى تصدر عنه » ص١٢٩ . وبما أنه ليس هنالك انفصال بين حياة الحلم وحياة اليقظة ، فإن الشخصية كلها تنعكس فى الأحلام . « فإذا كان الفرد — فى الواقع — شخصية واحدة ، فى حالات صحوه ونومه ، فإنه ينبغى أن تكون الغاية من الأحلام ، غاية واحدة تتوافق مع مجرى شعوره فى كلا الحالين » ص ١٣٠ . « فالغاية من الحلم ، على رأى أدلر ، تأييد أسلوب الحياة » ص ١٣١ .

ولكى نوضح كيف ينم الحلم المفصل الذى أوردناه عن طابع الشخصية بأكملها وكيف يتفق مع النمط الذى تسير عليه الحياة النفسية للحالمة ، نعود إلى حياة الحالمة : نشأت (ن . ج) نشأة ريفية متواضعة . . . . إلا أنها استطاعت بجمالها وذكائها ، ونتيجة لزواجها مرتين ، أن تقفز بخطوات سريعة واسعة سلم الترقى الاجتماعى حتى أصبحت فى منزلة يحسدها عليها بنات جنسها ممن هن فى مثل ما كانت عليه قبل ارتقائها . وهى تحتل مكانتها الاجتماعية الحالية عن جدارة . ولا يمكن أن ينبئ حاضرها عن ماضيها . غير أن مثل هذا الحلم يكشف عن أنها تبذل فى سبيل الاحتفاظ بالمستوى الحالى ، ولتساير وضعها الاجتماعى الراهن ، تبذل جهداً ليس باليسير . وهذا الجهد لم يضع هباء بل ترك أثراً ظهر فى حلمها ، الذى يمكن اعتباره مرآة لما فى نفسها . فالشعور بالدونية فى النهار ، لم يزايلها خلال الليل . فليس الحلم إذن سوى نتاج لأسلوبها فى حياتها . وعلى ذلك يمكن — إذا اصطنعنا طريقة

---

(١) « علم النفس الفردى » تأليف الدكتور إسحق رمزى — الناشر دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٦ (من ص ١٢٣ إلى ص ١٣٤) .

أدلر فى تفسير الأحلام — اعتبار حلم الحفاء نموذجاً مجسما كاملا ومعبراً أصدق تعبير عن «عقدة النقص» . فالحفاء فى الحلم استمرار للقصور الذى تعانيه الشخصية ، انحدر معها آناء الليل ، كما أخذ عليها جماع تفكيرها فى أثناء النهار . وعلى ذلك فقد تكون الرغبة فى غشيان الحفلات الساهرة ، أو فى ارتداء فساتين السهرة متعارضة مع الواقع أو مع شعورها بالدونية وبأنها لن تكون (ملء ثوبها) . أو قد يعنى الحلم أن زخرف الثوب لن يغنى عن مرارة الواقع . فإذا نجح ثوب السهرة الأبيض فى التمويه على الناس ، فهيهات أن ينجح فى إخفاء ما فى النفس عن النفس . وهكذا يسيطر أسلوبها فى حياتها على حلمها . وليس فى الحلم مناقضة لحياتها . بل يظهر فيه بجلاء ووضوح الشعور بالقصور الذى ينتابها كلما تذكرت نشأتها ، وكلما عقدت صلات اجتماعية جديدة مع أفراد الطبقة الراقية . وعلى ذلك فهذا الحلم النموذجى حلم معبر عن الشعور بالقصور الذى ينتاب شخصية الحالمة . ويتفق مع النمط الذى تسير عليه حياتها النفسية : فحياتها كثوبها ، بيضاء ناصعة ، لاتشوبها شائبة لولا أن أقدامها عارية . وفى حفائها إشارة رمزية إلى رقة حال أصلها .

ويمكن أن نلخص أوجه الاختلاف بين طريقة كل من فرويد وأدلر فى تفسير مثل هذا الحلم فيما يأتى : —

١ — يرجع فرويد حلم العرى — وحلم الحفاء كذلك ، إذا اعتبرنا الحفاء جزءاً من العرى — إلى الرغبات الطفلية المكبوتة . وهو تفسير من جانب واحد . أما أدلر فينظر إلى الحلم على أنه ينم عن أسلوب الشخصية فى حياتها .

٢ — يقول فرويد بوجود تناقض بين الشعور واللاشعور ، وبأن تفكير الحلم يختلف عن تفكير الصحو . ينفى أدلر وجود مثل هذا التناقض : (فالفرق بين تفكير النوم ، وتفكير اليقظة ليس فاصلا باتاً . والانفعالات التى يثيرها الحلم ، والتى يستشعرها المرء لا بد أن تتسق وأسلوبه فى الحياة) ص ١٣١ .

٣ — يوجه فرويد جل عنايته للنزعات اللاشعورية . بينما يلعب اللاشعور دوراً صغيراً نسبياً فى سيكولوجية أدلر . فبينما يعنى فرويد بنزعات الهو (Id) ، يتشبث أدلر بالأنا (Ego) .

وطريقة كل من فرويد وأدلر تحليلية . والطريقة التحليلية العلية — كما يقول يونج — لا تشتمل إلا على نصف الحقيقة . وتعتبر الطريقة التركيبية ليونج مكملة للطريقة التحليلية .

يمتاز مذهب يونج فى « علم النفس التحليلى » بالشمول ، والعمق ، ورحابة الأفق . يبدو الشمول فى نظريته عن اللبيدو أو الطاقة النفسية . وهى أعم من فكرة كل من فرويد وأدلر . فيتضمن اللبيدو الميول الجنسية التى يعنى بها فرويد ، والميل إلى السيطرة الذى ينادى به أدلر . بل إن اللبيدو أوسع وأشمل منهما معاً . ويبدو العمق فى فكرته عن اللاشعور الجمعى ، وهو طبقة أبعد غوراً فى أعماق النفس . وهو فطرى موروث ، يشترك فيه الناس جميعاً . أما رحابة الأفق فتبدو بجلاء ووضوح فى طريقته التركيبية التشييدية التى لا تقتصر — كما يفعل فرويد وأدلر — على التحليل والتعليل ، والإحالة إلى الأسباب والدوافع الماضية ، وإنما تعنى بالتشييد وبتفهم الأهداف والغايات ، وبتحقيق الوئام بين الدوافع والغايات ، وبإيجاد علاقات بين خلجات النفس والفلسفات الكونية كما تبدو فى الأساطير والديانات .

يتعذر علينا فى هذا المقام — ونحن بصدد تفسير حلم — أن نعرض لفلسفة يونج التى تمثل نظاماً شاملا ، مهما توخينا فى ذلك الإيجاز . وليس مذهب يونج مجرد مجموعة آراء متفرقة فى موضوعات مختلفة . وإنما ينتظم هذه الآراء فى فلسفة شاملة ونظام من العلاقات : فطريقته التركيبية ، وطريقته فى العلاج النفسى ، وطريقته فى تفسير الأحلام وفى التداعى الحر ، كلها مترابطة وتقوم على أساس فكرة اللبيدو ، والنماذج السيكولوجية ، واللاشعور الجمعى ، والصور الأولية البدائية . . . والإدراك الصحيح لأحد هذه الموضوعات رهن بالإلمام بطريقته فى تناول الموضوعات الأخرى ، لأنها تكون كلها وحدة .

وإذا أردنا أن نصطنع طريقة يونج فى تفسير الأحلام ، لتطبيقها على حلم الحفاء ، كان لزاماً علينا أن نأخذ فى الاعتبار فكرته الجوهرية عن « الصور الأولية البدائية — Archetypes » التى يحتوى عليها اللاشعور الجمعى ، والتى تبدو فى الأساطير كما تبدو فى الأحلام .

يرى يونج أنه إلى جانب اللاشعور الفردى . يوجد لاشعور جمعى يشترك فيه الناس جميعاً ، ويحتوى على انطباعات من خبرات الجنس توارثناها على مر الأجيال ، فيحتوى اللاشعور الجمعى على الصور الأولية البدائية وهى نماذج للتعبير درج عليها النوع فى ارتقائه ، وطرائق للتفكير انحدرت إلينا من أسلافنا الأولين . تظهر هذه الصور من وقت إلى آخر بين شعوب مختلفة وفى عصور مختلفة . ويبدو تشابهها فى دوافع الأساطير ورموزها ، وفى الأحلام ، وفى القصص الخرافية ، وفى أوهام

المعتوهين . تظهر هذه الصور والرموز المتشابهة تلقائياً فى خطوط متوازية ، فى أنحاء العالم المختلفة ، دون أن يكون هنالك احتمال فى أن يكون هذا التشابه نتيجة للانتقال والتوزيع . هذا التشابه فى الرموز الأسطورية وفى الأحلام كما يبدو فى عصور مختلفة ، وبين الشعوب المتباعدة ، هو أكبر دليل — عند يونج — على وجود اللاشعور الجمعى . « يحتوى اللاشعور الجمعى على الصور والرموز الأسطورية . ولهذا السبب تعتبر أساطير الشعوب أكبر دليل وأصدق معبر عن اللاشعور الجمعى . ويمكن اعتبار الأساطير كلها كنوع من الإسقاط من اللاشعور الجمعى »(١) فما يستدل به يونج على وجود اللاشعور الجمعى ، التشابه بين الأساطير فى مختلف الأمكنة والأزمنة . والتشابه بين الرموز الأسطورية وبين الأحلام عند الناس على اختلاف أجناسهم . فتحليل الأحلام يحتاج إلى معرفة بالأساطير . فالأسطورة كالحلم كلاهما من نتاج اللاشعور . وكما أن يونج يقول إن الأسطورة هى « حلم الشعب » ، فكذلك يقول شتيكل إن الحلم هو « أسطورة الفرد » . فالأسطورة تلقى ضوءاً على معنى الحلم . والبحث عن نظائر للأحلام فى الأساطير والديانات ركن هام من الأركان التى تقوم عليها طريقة يونج فى تفسير الأحلام . (راجع فى هذا الصدد تحليل يونج لبعض أحلام حلمها مكدوجل)(٢) فإذا اصطنعنا طريقة يونج فى تفسير الأحلام ، جاء البحث عن نظائر لحلم الحفاء فى الديانات والأساطير متمشياً مع منهجه .

استلفت نظرنا وجه الشبه الكبير بين حلم الحفاء ، وحلم الملك بختنصر . حلم هذا الملك بتمثال رأسه من ذهب وأقدامه من طين . وقد ورد هذا الحلم فى التوراة ، فى سفر دانيال ، الأصحاح الثانى . وفيما يلى نصه : « ٭ فكنت أنت الملك ترى وإذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيما ورفيع القامة واقفاً قبالك ومنظره مخوفاً ٭ رأس هذا التمثال هو من ذهب إبريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس ٭ والساقان من حديد والقدمان قسمة منهما من حديد وقسمة من خزف ٭ »

« والأقدام من طين أو من خزف — The Feet of Clay » اصطلاح شائع فى الأدب الإنجليزى ، يشير إلى الخصائص الدنيا ، أو إلى المظهر الخلاب القائم على أساس هش .

---

(١) C.G. Jung : "Contributions To Analytical Psychology"; p. 111.

(٢) W. McDougall : "An Outline of Abnormal Psychology"; Ch. IX.

وقد يكون الحفاء فى الحلم ، كأقدام التمثال من طين ، كلاهما من النماذج الأولية البدائية ومن نتاج اللاشعور الجمعى إذا تمشينا مع طريقة يونج .

لو أن للأحلام دلالة على المستقبل ، لجاز أن يكون حلم الحفاء نذيراً وباعثاً على التطير . فقد يشير الحفاء إلى العوز والضيق . . . أو إلى سوء المصير . . . حقيقة قد ظهر فى بعض التفسيرات التى وضعها يونج فى تحليله لبعض الأحلام[١] إشارات إلى المستقبل . غير أننا بمراجعة الأحلام الكثيرة التى قام بتحليلها يونج ، نستخلص — فيما يتعلق بالطريقة — أن يونج لا يتنبأ بحوادث المستقبل الخارجية المطلقة مستقلة عن ظروف الحالم . وإنما يتخذ من الأحلام شواهد على احتمالات يرجح أن يصادفها الحالم فى المستقبل . فهو يشير ، بمقتضى طريقته التركيبية ، إلى أن أسلوب الحالم فى حياته ، كما يتضح من أحلامه ، قد يفضى به إلى اتجاهات معينة ، قد يصادفها وقد لا يصادفها فى المستقبل . وليس هذا من التنبؤ بالغيب فى شىء . ونحن لا نميل إلى الاعتقاد بأن حلم الحفاء نذير ، ولا هو مدعاة إلى التشاؤم من المستقبل . بل أولى به أن يستمد دلالته من الماضى . لأن المخبأ فى الغيب فى الخارج ، يلوح وكأنما هو إسقاط لما هو مخفى فى اللاشعور فى الداخل . ولا يطيع الحلم إلا قوانين اللاشعور . وفى الدوافع اللاشعورية تبدو الحتمية ، على حين تبدو المصادفة الحقيقية فى الحوادث الخارجية . وإذ تظهر فى الأحلام الرغبات الدفينة والحاجات الكامنة ، سافرة على حقيقتها أو بطريقة رمزية مقنعة ، لا نستطيع أن نخدع بها أنفسنا . فالأحلام مصدر موثوق به ومعبر بطريقة موضوعية صادقة عن محتويات اللاشعور . فقد يدل الحفاء فى الحلم على شعور بالخوف من العوز والضيق فى المستقبل . وقد يرمز الحفاء إلى فقدان الشعور بالأمن . وإذا فسر حلم السيدة (ن . ف .) الذى أوردناه مفصلا فى صدر هذا المقال ، بالطريقة التركيبية ليونج ، لما كان الحلم إشارة إلى ماضى اللاشعور وحسب ، بل إنه يحدد اتجاهات للشخصية فى سلوكها المستقبل . فلو اعتبرنا حلم الحفاء عرضاً Symptom لبدا الحلم معبراً بطريقة مسرحية عن الفشل الذى يتهدد الشخصية فى محاولتها التلاؤم مع الوسط الاجتماعى . وعما تحس به الحالمة من فقدان الشعور بالأمن . ولو علمت كيف تفيد منه الحالمة ، لانعظت ولم تتغال فى طموحها ، لأن الحلم يدعوها إلى القصد .

من ذلك يتضح أن إشارة يونج ، بمقتضى طريقته التركيبية ، إلى المستقبل

---

(١) Jung : Ibid. p.p. 325-328.

يحددها ويتحكم فى توجيهها الظروف الماضية للحالم وميوله واهتماماته الخاصة . ومعنى ذلك أن صور الحلم لا يمكن أن تحمل دائماً نفس المعنى فى مختلف الحالات . وبالتالى فإن مغزى الحلم نسبى يختلف باختلاف الظروف والملابسات . فإذا اعتبرنا الحفاء فى الحلم رمز ، فإن دلالة هذا الرمز (باعتبار المستقبل) ليست ثابتة ، وإنما تختلف باختلاف الملابسات الماضية . دلالة هذا الرمز ، كما يقول أنصار التحليل النفسى ، ليست فى الخارج ، وإنما هى دلالة على الدوافع اللاشعورية فى الداخل . ليست للرمز دلالة على المستقبل وإنما يستمد الرمز دلالته من الماضى . فالحتمية السيكولوجية تبدو فى الدوافع الداخلية وهذه جذورها فى الماضى . أما المصادفة الحقيقية فهى ما تبدو فى الخارج وفيما قد يحدث أو لا يحدث فى المستقبل .

وبعد هل حلم الحفاء نتيجة لمؤثر حسى ؟ هل هو تعبير عن رغبات طفلية مكبوتة ؟ إذا أخذنا بقول فرويد . هل هو تعبير عن القصور الذى تعانيه شخصية الحالم ، ويتفق مع النمط الذى تسير عليه الحياة ؟ إذا اصطنعنا طريقة أدلر . هل هو من الصور الأولية البدائية ومن نتاج اللاشعور الجمعى ؟ إذا أخلصنا الولاء لطريقة يونج . هل هو نذير سوء وباعث على التطير ؟ . إذا استبعدنا الاحتمالين الأول والأخير ، تتبقى تفسيرات على طريقة كل من الثلاثة الكبار . ولسنا فى موقف يسمح لنا بأن نقطع بأى هذه التفسيرات أصدق . وإن كان التفسير على ضوء طريقة أدلر يبدو أكثرها اتفاقاً مع ظروف الحالمة . حسبنا أننا عرضنا لمختلف المذاهب فى التفسير . ويحتمل أن توجد تفسيرات أخرى . وليس من المهم ، بعد كل هذا العناء ، أن نكون قد وفقنا إلى تفسير الحلم . فلا يوجد معيار موضوعى صحيح ، ولا قاعدة ذهبية فى تفسير الأحلام . وإنما الذى يعنينا هو مدى التوفيق فى الاستمساك بالمنهج ، وفى الولاء للطريقة . وهذا هو ما ندعو الطالب المبتدئ إليه . فهو أحوج ما يكون إلى اصطناع كل الطرق الممكنة . أحوج ما يكون إلى وضع وجهات النظر المختلفة جنباً إلى جنب ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، والنظر إليها من أفق رحب . آفة الفكر التعصب المبكر . والتقيد مقدماً بمبدأ موجه سبق الاقتناع به ، غالباً ما يؤدى إلى مجانبة الصواب . ولذلك ينبغى النظر بتفهم وبتسامح وبقلب وعقل متفتح لوجهات النظر المختلفة . والاستعانة بشتى المناهج . فالحقيقة السيكولوجية بالغة التعقيد ممعنة فى الخفاء . تناولتها كل مدرسة من ناحية معينة ، وألقت عليها ضوءاً من زاوية خاصة ، دون أن تلم مدرسة واحدة منها بالحقيقة جميعها .

نجيب يوسف بدوى